Route Educational & Social Science Journal
Volume 6(2) ; January 2019

منزلة السلم والتسامح عند السلطان صلاح الدين الايوبي في مرويات كتاب ابن شداد

Peace and Tolerance at Salah al-Din al-Ayyubi in Narratives Ibndad Shad

بحث تقدم به

أ.م.د. باسم صالح نجم الجيشي

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وأصحابه اجمعين وبعد ..

عد كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين(٥٣٢-٥٨٩هـ) لمؤلفه القاضي ابن شداد واحداً من اهم الكتب التي اهتمت بسيرة الرجال وأعمال الابطال من جنود الامة عبر عصورها المختلفة فمؤلف الكتاب ابن شداد ، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم شهر بابن شداد الذي ولد في الموصل عام ٥٣٩هـ توفي في حلب ٦٣٢هـ والذي حفظ القرآن الكريم من صغره ودرس العلوم الشرعية على يد كبار شيوخ عصره ثم شاءت الاقدار أن يكون في كنف القائد صلاح الدين الايوبي فوثق بشكل صادق حياة وسيرة هذا القائد وكان ملازماً له في حله وترحاله ، يقول ابن شداد[١] في ذلك (...

[١] ابن شداد بهاء الدين ابو المحاسن يوسف رافع بن تميم (ت ٥٣٩/١١٤٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين ، تحقيق: احمد ابيبش ، دار الاوائل /سوريا ، ٢٠٠٣ ،ص١٤٩.

(٢) ابن شداد، النوادر ،ص٦٦

(٣)ن .م ٦٨.

ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت) ص١٤٩ من هنا جاءت سمعته التي بلغت الآفاق وقد رسم لنا ابن شداد في كتابه هذا صور عظيمة من صور السلام والتسامح الاسلامي العظيم الذي كان عليه فكر السلطان صلاح الدين مع الآخرين روى ابن شداد[٢] (... وقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة من خدمة والرعية واكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه) ص٦٦ .

ويورد ابن شداد[٣] صور اخرى لاسرى ، وكيفية التعامل السلمي معهم من قبل السلطان صلاح الدين (وقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي وقد هابه بحيث ظهرت عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه ان قال قد كنت اخاف قبل ان أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه ايقنت أني ما ارى الا الخير فرق له ومن عليه واطلقه)ص٦٨ .

وحادثة تلك المرأة النصرانية التي أعاد اليه ابنتها بعد ان رق اليها السلطان وأعادها مع امها الى معسكرهما . كل ذلك من صور السلام الذي ابداه القائد صلاح الدين مع خصومه [٤].

ومن الصور الاخرى انه عندما وصل السلطان الى بيروت وصل الى خدمته البرنس صاحب انطاكية فبالغ في اكرامه واحترامه ومباسطته وانعم عليه[٥] .

أما صور رسالة السلام مع الاخرين فانه في ذلك اعطى صور كثيرة من صور الاسلام الصادق الذي ملأ الآفاق بعدله ومساواته وان الناس جميعا لآدم وآدم من تراب ، وهناك في اتون الكتاب صور كثيرة لا حصر لها عن فكر السلام الذي أبداه القائد صلاح الدين مع مناوئيه أبرزت الروح العالية والهمة الكبيرة عنده في التعامل الانساني مع الاسرى والقادة الذين جاءوا يضمرون العداء له ولجيشه الا انه كان متسامياً متسامحاً . فكم من صور التعاون الذي ابداه مع اعداءه كل ذلك يرسم صورة الدين الاسلامي ورسالته السمحاء السلمية الى العالمين وهي ما حاول البحث ان يوثقها ويبرزها ليرى العالم حقيقة الاسلام ورجاله .

الكلمات المفتاحيه: كتاب ابن شداد ، القائد صلاح الدين الايوبي ، السلم والتسامح .

Abstract

The book(al nawader al sultanyah and al mahasen al usefiyah) is considered the most important books that have dealt with the biography of men and the works of heroes through different ages.The author Bahaa al-Din Abu al-MahasineYousef bin Rafi bin Tamim was famous for IbnShaddad ,who was born in Mosul in 539 and died in Halab in 632 has kept the koran since the young and studied the science of legitimacy by the elders of his time ,The leader of Saladin Ayyubi accompanied him in any were so IbnShaddad could document the life and biography of Saladin accurately. IbnShadded said:"...and they call me to wait for him in the service all the time ."Hence his reputation,which reached the horizone. "The son of Shaddad give us the image of the Islamic tolerance that Salahdin embodied with his enemies and supporters. IbnShadded said:"Isaw him and the owner of the city of Sidon entered his service and the parish and ate with him food.

IbnShadded mentioned another picture of the prisoners and how Salahuddine treated them.Hesaid,"I saw him.He stood in his arms as aprisoner. The prisoner was afraid.He said to him."Fromany thing you feat?The prisoner Sade ,I fear nothing befor I see this face."After seeing him and holding me in his hand , Salah al-Din said that you are free".

Keywords:Book of IbnShaddad, Commander Salah al-Din Ayyubi, peace and tolerance.

(٤)ن .م ٧٠.

(٥)ن .م ٣٥٥

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله واله وصحبة ومن والاه الى يوم الدين وبعد ..

عد كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين (٥٣٢/٥٨٩هـ) لمؤلفه القاضي ابن شداد واحداً من اهم الكتب التي ترجمت سيرة وحياة رجال الامه الافذاذ الذين قدمو لها عصارة جهدهم وجهادهم من اجل اعلاء راية الاسلام في المعمورة وتكمن اهمية الكتاب ليس في جانب السرد لشخصية وسجاية القائد صلاح الدين فحسب بل انها كانت وبحق ادق ماوصل الينا من سيرة هذا القائد بعين الشاهد الصادق في نقل الاحداث التاريخية كما وقعت.فمؤلف الكتاب ابن شداد ، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم اشتهر بأبن شداد ولد في الموصل عام ٥٣٩هـ وتوفي في حلب ٦٣٢هـ[٢]كان واحداً من المع من دون التأريخ في عصره في وقت كانت الموصل تنبض بعمالقة المؤرخين المعروفين على الساحة العربية والاسلامية انذاك ممن اتسموا بصدق المنهج وحيادية المشاعر والعواطف لذلك كان عصر المؤلف قد شهد العديد من العلماء في جميع العلوم الامر الذي جعل ابن شداد ومنذ نعومة اضفاره يدرس العلوم الشرعية التي كانت المجال الخصب للثقافة الاسلامية العالية فقد حفظ القرآن الكريم من صغره ودرس العلوم الشرعية على يد كبار شيوخ عصره ثم صال وجال في البلدان والمدن العربية الاسلامية وشاء الله عز وجل ان يكون في كنف القائد صلاح الدين الايوبي الذي اهتم به ايما اهتمام واعطاه من القرب والتواصل معه ماكان حلم لكل مؤرخي عصره فوثق بشكل كامل ودقيق وصادق حياة وسيرة القائد صلاح الدين فكان والحال هذا ملازماً له في حله وترحاله[٣]

ولما اتسم به المؤلف من روح وسجاية وصفات اسلامية حقه فأن القائد صلاح الدين قد ادناه كثيرا عبر عنها ابن شداد(... ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت)[(١)]وان امر الخدمة لم تكن هنا فيما تعارف عليه الناس ولكن الخدمة هنا في انه كان يقرأ له ويبدي له الاراء السديدة والمواعض الكثيرة التي كانت تحظى بأهتمام السلطان لذلك نرى في الكتاب كثيراً من العبارات التي تؤكد ذلك مع اختلافات اللفظ فمثلا مرة يقول (وأنا في خدمته)[(٢)] أو يقول (وكنت في خدمته)[(٣)] والى ذلك يقول (وسرت في

(١) ابن شداد بهاء الدين ابو المحاسن يوسف رافع بن تميم (ت ٥٣٩/١١٤٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين ، تحقيق: احمد ابيبش ، دار الاوائل /سوريا ، ٢٠٠٣ ص ١٤١.

(٢)

خدمته)[٤] وقد عمد ابن شداد الى تاليف كتاب عن الجهاد والذي حظي بعناية واهتمام القائد صلاح الدين بعد ان رأى ميل صلاح الدين للجهاد وحبه واصراره عليه فقدم هذا الكتاب هدية له ، وكانا يتدارسانه معا وحتى في احنك الظروف واقساها وقد احب القائد صلاح الدين هذا الكتاب (وكان يلازم مطالعته)[٥] واتسمت سيرة القائد صلاح الدين بالجهاد الكبير لتحرير الارض العربية من الاعداء ووضع كل اهتمامه بالجهاد عبر عنها ابن شداد بالقول (ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف انه ما انفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر في يمينه)[٦] . وقد بلغ في حب السلطان صلاح الدين للجهاد مبلغاً عبر عنها ابن شداد بالقول (ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في ألته ولا اهتمام الا برجاله ولا ميل الا من يذكره ويحث عليه وقد هجر في محبته الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة)[٧]. ولم يخفى ان شداد ان الناس كانوا يتقربون للسلطان من خلال حديثهم عن الجهاد وبذلك يقول (وانا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه ادابه وكل اية وردت فيه و كل حديث روى فيه وشرحت غريبها وكان رحمه الله كثير ما يطالعه)[٨]

٤

[٢] ابن شداد ، النوادر ، ٢٦٤ .

[٣]ابن شداد ، النوادر ، ٢٦٤-٢٦٥ .

[٤]ابن شداد ، النوادر ، ٢٦٥ .

[٥]ابن شداد ، النوادر ، ٥٣ .

[٦] ابن شداد ، النوادر، ٥٣

[٧]ابن شداد ، النوادر ، ٥٣ .

[٨]ابن شداد ، النوادر ، ٥٤ .

[٩]ابن شداد ، النوادر ، ٣٥٤ .

وكان اجمل ما حمل لنا شداد في سرده لحياة صلاح الدين الجهادية ان الجهاد قد شغل كل وقته مما جعل القائد صلاح الدين أن يمنعه شغفه وعمله بالجهاد من اداء فريضة الحج بقوله (وانقطع شوقه الى الحج وكان من اكبر المصالح التي فاتته ولم يزل كذلك)[٩] انما تمتع به ابن شداد من منزلة لمكانته العلمية عند السلطان قد جعلته مكمن سره ومن اهل المشاورة والرأي عنده فطالما كانت الروايات في سرد حياة صلاح الدين في النوادر ما تشير الى جمع القائد صلاح الدين اهل المشورة والرأي لغير واحد من الامر يعتريه ويكون ابن شداد معهم من اهل الحل والعقد والمشورة[٥٠]بل ان امور الدولة والخطط العسكرية للقائد كان الحاضر لها ابن شداد مع العدد القليل الذي يجمعهم القائد صلاح الدين لهذا الغرض[١١] فلا غرابة والامر هذا من اعتماد واناطة مهمة الامور السرية والتي يحتاج لها السلطان الى الكتمان الشديد من اناطة مهمتها لابن شداد فقد كان رسوله الى القادة والامراء وهو المتقدم عليهم في كل امور البلاد التي تواجه السلطان[١٦] . وبذلك يمكننا القول بان لابن شداد مكانة مرموقة عند السلطان وكان يدينه كثيراً ولغير واحد من الامر لما اتسم به من السجايا الطيبة التي اهلته لان يحظى بحب السلطان صلاح الدين ويكون محل ثقته وملازمته دوماً ومنزلته كما يعرفها الناس عند القائد صلاح الدين الايوبي وفي كتاب النوادر العديدمن الصور المشرقة لمنزلة الناس بكافة اطيافها ومذاهبها ودياناتها عند القائد صلاح الدين التي جعلت منه تربيتة الاسلامية شخصاً محباً متفهماً وبسيطاً يحب الناس والخير لهم والعدل فيهم وهذا ماجعل الناس يهرعون اليه من كل حد وصوب ليحضون بعطفه وكرمه وانسانيته وعلمه وثقافته الاسلامية العالية ذكر ابن

---

[٤٠] ابن شداد ، النوادر ، ٢٩٢ .

[٤١] ابن شداد ، النوادر ، ٢٩٥ .

[٤٢] ابن شداد ، النوادر ، ٣١٤ .

[٤٣] ابن شداد ، النوادر ، ٨١

شداد (والناس يدعون اليه من كل صوب ويغدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم واحداً)[١٧]

وكان السلطان كريماً سخياً مسالماً حتى مع اعداءه وبذلك نال احترامهم وتوقيرهم وفرض نفسه كشخصية سلمية اسلامية فذه وبذلك قال ابن شداد (وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد)[١٤] واتسمت شخصيته السلمية بالمرونة السياسية والاحسان الى الناس ونشر العدل بينهم حتى مع اعداءه يذكر ابن شداد (ولم يزل على بسط العدل ونشر الاحسان وافاضة الانعام على الناس ...)[١٥].

ومن الامور الجديرة بالذكر في مسألة السلام والتسامح والتعايش عند السلطان صلاح الدين فانه قد اثرى في ذلك وبمواقف كثيرة كان يمن بها بالعفو والتسامح على اعداءه وجعل البلاد تعيش فيها الاديان اخوة متحابين لا فرق بين هذا وذاك الا على الاسس التي ثبتها الدين واقرها المسلمون في تعاملهم ومن اجل ذلك يقول ابن شداد في ان السلطان كان يعطي الامان للعدو وهو في اوج النصر ونشوته (وكان رحمه الله متى طلب الامان منه لا يبخل به)[١٦]. وانعكس امر السلام والامان حتى لمن كان له مواقف مشينة مع المسلمين كل ذلك كي يحقق رسالة الاسلام السامية والانسانية في السلام والتعايش السلمي كما هو الحال فيما اورده ابن شداد من معاملته مع ملوك وقادة عصره من النصارى مثل الملك جفري والبرنس ارناط واخو الملك البرنس وهو صاحب الشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية وصاحب جبيل ومقدم الاستبار الذين اسروا واعطاهم الامان رغم غدرهم بالمسلمين فيما سبق من حالات السجال العسكري[١٧]ويستطرد ابن شداد في وصف هؤلاء الاسرى المهمين عند السلطان بانه دعاهم في خيمته واكرمهم وسقاهم الماء بيديه الكريمتين ولم يأخذه عز الانتصار الا تواضعاً لله شاكراً لانعمه وما اغدق عليه من الصحة والنصر[١٨]وذكر الحاضرين عنده باخلاق العرب واخلاق الاسلام واخلاق الملوك بقوله لهم كما اشار ابن شداد (لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك)[١٩] .[٨]

---

[٨٥]ابن شداد ، النوادر ،٨٦

[٨٦] ابن شداد ، النوادر ، ١٤٥ .

وقد بالغ السلطان في ابداء المرونة السياسية والمالية مع الاسرى من الطرف الاخر كل ذلك لكي يحقق مبدأ السلام والوئام والتعايش السلمي فعندما كان يتصالح ويكتب كتاب الصلح من موقع المنتصر فانه كان يطلق سراح الاسرى بمبالغ زهيدة جداً كل ذلك لكي يعكس صورة الاسلام السلمية السمحاء اليهم فمثلاً كان يفرض ١٠ دنانير على الرجال وعلى كل امرأة ٥ دنانير وعن كل صغير ذكر او انثى دينار واحد كما يشير ابن شداد [٢٠] ومن الامور التي تستحق عندها التوقف ام جمع الاموال التي كانت تأخذ كان السلطان يوزعها في الحال على المسلمين ولم يبقى منها شيء وهي صفة من صفات الزهد والعدل عنده قل نظيرها[٢١] .

ولهذه العدالة واثرها في الناس كانت البلاد تسلم امرها وامانها الى السلطان وذلك لمعرفتهم بحبه للسلام وبعدله وانسانيته وتنبذ القتال معه ولأجله)[٢٢]وكان من مبادئ حروب السلطان انه كان يتخذ من يوم الجمعة يوماً للجهاد والفتح وذلك لانه كما يشير ابن شداد[٢٣] (فاتفقت فتوحات الساحل من جبله الى سرمانية في ايام الجمع وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يشير لنا الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها في تاريخ) والى هذا فصور المن والعفو والتسامح التي اظهرها السلطان كانت كبيرة كلها تعكس فكره السلمي ونشره بين الناس بغض النظر عن انتمائهم وكثيرة فعندما فتحت قلعة برزية[٢٤] العصية برجالها وحصونها فان السلطان قد رق لاهلها وحالها فعفا عنهم واعطاهم الامان واطلق سراحهم استمالة لحاكمها[٢٥].

---

[٨٧]ابن شداد ، النوادر ١٢٩.

[٨٨]ابن شداد ، النوادر ، ١٣٠ .

[٨٩] ابن شداد ، النوادر ، ١٣١ .

[٢٠] ابن شداد ، النوادر ، ١٣٥-١٣٧.

[٢١] ابن شداد ، النوادر، ١٣٦

[٢٢] ابن شداد ، النوادر، ١٤٤

[٢٣] ابن شداد ، النوادر، ١٤٨-١٦٥

وكذلك اعطى السلم والامان لاهل انطاكية[٢٦]بعد فتحها [٢٧]ومن الامور الجديرة بالذكر في قيادة صلاح الدين السلمية والجهادية انه كان يخطط بشكل كبير لكل صغيرة وكبيرة ولا ينام الا بعد اطمئنانه لاتمام عمله يقول ابن شداد في فتح صفد[٢٨](ولقد كنت عنده في خدمته ليلة وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب فقال في تلك الليلة ما ننام حتى تنصب الخمسة) [٢٩] وكل هذا الحرص لايصال رسالة للمقاتلين ضده بالاستحضارات القوية عنده كي يدخل الرعب في نفوسهم مما يسهل عليهم عملية التسليم والتي تقضي دائماً الى السلام والعفو والتسامح لعيش الجميع بسلام ووئام وبلا غدر ومن الثابت ان السلطان كان يذكي في نفوس اصحابه النخوة العربية الاسلامية لشحن الهمم والنفوس العالية وكان صيحته (يا للاسلام)[٣٠]تدوي في كل معاركه مذكراً الجميع سجايا وصفات المؤمن الذي يعفو عند المقدرة .

وانعكست صورة الاسلام في فكر السلطان من خلال صور العفو والفداء للاسرى على الصبيان في جيش صلاح الدين فمن النوادر التي يذكرها ابن شداد عندما اشير الى ان يقاتل الكبار وليس الصغار تريد ان يصطرع صبيان صبي منا وصبي منكم فيروي ابن شداد[٣١] هذه الحادثة

---

[٢٤] قلعة برزيه : وهو احدى الحصن المهمة شمال الشام ،ابن حوقل ، ابي القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٩ ،ص١٥٤ .

[٢٥] ابن شداد ، النوادر، ١٤٩

[٢٦] انطاكية وهي احدى مدن بلاد الشام في قنسرين واحد ابواب هذه المدينة من الابواب السبعة المطلة على حلب ، ابي بكر المقدسي ، شمس الدين ابن عبدالله محمد بن احمد (ت ٣٨٠هـ)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ٢٠٠٣ ،ص١٣٨-١٣٩ .

[٢٧]) ابن شداد ، النوادر، ، ١٥٠-١٥١ .

[٢٨] صفد ، مدينة في جبال مطلة على حمص بالشام ، ياقوت الحموي ، الامام شهاب الدين بن عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ج٣ /٤١٢ .

[٢٩] ابن شداد ، النوادر، ١٥٢.

[٣٠]ابن شداد ، النوادر، ١٦٨.

[٣١]ابن شداد ، النوادر، ١٧٠.

(فاخرج الصبيين من البلد الى صبيين من الافرنج واشتد الحرب بين الصبيان فوثب احد الصبيين المسلمين الى احد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الارض وقبضه اسيراً واشتد به ليأخذه فاشتراه منه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو اسيرك حقاً ، فأخذ الدينارين واطلقه وهذا من نوادر القتال) وهي تعكس عن معاني السلام والعفو والتسامح الذي غرسه الاسلام في نفوس الناس صغاراً وكباراً وهي مبادئ سامية قل نظيرها في الامم الاخرى مما جعل الاسلام ينتشر في ربوع الارض بالسلام والتسامح الذي حمله ديننا الحنيف وبذلك نرى القائد صلاح الدين يجلس مع خصومهم ويأكل معهم ويعرض عليهم الاسلام ورسالته السلمية وهذا اكبر دليل لاحترام رسالة الاسلام ومعاني الحوار والتعايش مع الخصوم كما حدث مع صاحب صيدا يقول ابن شداد (وقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بن ناصر ممن خدمه والرعية واكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام وذكر له طرفاً من محاسنه وحث عليه)[٣٢] ويبدو ان بشاشة صلاح الدين وابتسامته لخصومه وهي سمة السلام البارزة كانت قد اثرت بشكل مباشر على احترام الناس وهيبتهم منه وحبهم ، يذكر ابن شداد[٣٣](وقد رأيته وقد مثل بين يديه اسير افرنجي وقد هابه بحيث ظهرت عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه ان قال كنت اخاف قبل ان ارى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه ايقنت اني ما ارى الا الخير فرق له ومن عليه واطلقه). وكان هدف صلاح الدين من حروبه وجهاده هو العمل على اشاعة روح السلام منهجاً وتطبيقاً فضلا عن احترام الانسان بغض النظر عن انتمائه الى طائفة اخرى وكان رقيق القلب وبشكل ملفت للنظر فعندما جيء بامرأة محروق قلبها على ابنتها وهي من الافرنج على السلطان قد خلت فرق لها فأمر الترجمان ان يسألها عن قضيتها فقالت (... سرقت ابنتي البارحة استغيث الى بكرة النهار فقيل لي الملك هو رحيم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتكفاخرجوني وما اعرف ابنتي الا منك فرق لها ودمعت عيناه)[٣٤] وحركته مروأته وامر من يشتري البنت ويدفع ثمنها وسلمها الى امها هذا الموقف مهيب ويعكس سماحة الاسلام وفكر السلام عند السلطان ومكانة الانسان ومنزلته التي كرم الله بها (ولقد كرمنا بني آدم)[٣٥].

[٣٢] ابن شداد ، النوادر ، ٣٥٤ .

[٣٣] ابن شداد ، النوادر ، ٦٨ .

وقد حفل كتاب ابن شداد بالصور الكثيرة التي رآها وعاصرها وكان شاهد عيان عليها فوثقها ونجح في ان يقدم كتاباً عظيماً في التراجم وقد عكس فيه اخلاقيات الاسلام من خلال تعامل صلاح الدين مع خصومه سيما مع الاسرى فقد اغدق العطاء لهم فعندما كان يؤسر الاسير في يوم برد كان القائد صلاح الدين من يتولى توزيع الخيمة والفروات لتحاشي البرد للاسرى وكان يكرم الاسرى ولم يمنعهم وهم اسرى من ان يراسلوا ذويهم فهم في تعايش سلمي قل نظيره محترما القائد والجنود معاً وهم خصمه (وضلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصة وامر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فان البرد كان شديداً واحضر لهم طعاماً اكلوه وامر بخيمة نصبت قريباً من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت)[٣٦]، وقد وصلت اخبار اكرام صلاح الدين لخصومه الى ملوكهم الذين كانوا يقابلهم بكل مودة واحترام تعكس الرغبة في غرس مفاهيم السلام واهمية العيش والتعايش السلمي وفق مفاهيم الامن والعدل والانصاف والخير الذي كان مبتغى الاسلام ورسالته السمحاء[٣٧].وبالمقابل فان القائد صلاح الدين كان يكرم رسول رسل الملوك والقادة الافرنج[٣٨] وبذلك كانو يثنون على اخلاقيته وتعامله معهم وهم خصومه كما اشرنا وحق فيه

ومليحه شهدت لها ضراتها والحسن ليس لحقه من ناكر

ابلى جيش صلاح الدين بلاءً حسناً فكانوا مقاتلين من طراز خاص وكانو يخوضون غمار الحرب بكل عنفوان الاسلام غير ابهين للدنيا بل ان اصرارهم كان كمن يقول(والله لاتقتل الا عن عز)[٣٩] الا ان ذلك لم ينسيهم انسانيتهم وحب اذكاء روح السلام والتعايش مع الغير عارفين حق الغير قبل حقوقهم وكانت نشوة الانتصار لاتثنيهم عن الموادعة والمصالحة فعندما تشتد اوارها ويرى السلطان ان هنالك بصيص امل

---

[٣٤]ابن شداد ، النوادر ، ٦٨ .

[٣٥] سورة التوبة من الاية ٧.

[٣٦]ابن شداد ، النوادر ، ٢٠٢-٢٠٣ .

[٣٧] ابن شداد ، النوادر ، ٢٠٤ .

[٣٨] ابن شداد ، النوادر ، ٢٤٤ .

[٣٩] ابن شداد ، النوادر ، ٢٤٥ .

للامان للمقاتل الذي خسر الحرب يحاول جاهداً ان يستجيب بسرعة كي يحافظ على ماء وجه المقاتل بهذه الاخلاق ساس المجتمع وقد بعث ملك الانكليز رسالة اليه وقد خسر جنده المعركة الا ان السلطان ابلغ الرسول الذي اوصل الرسالة برغبة ملك الانكليز باللقاء بالسلطان اجاب بلا تردد وعلى الفور بالقول (الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة)[١١٠] تعكس الرواية اهمية الحوار مع الآخر وارساء فكرة السلام والموادعة عند المسلمين ، وكان السلطان على علم تام بكل مايجري في فكر المقابل ولكن يد المسامحة هي الغالبة عليه على امل ان يفهم الاخر ذلك عبر عنها بقوله كما اشار ابن شداد (وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ماعندهم من ذلك ايضاً)[٤١] ومن الجدير بالذكر ان جميع المدن الاسلامية التي مر بها القائد صلاح الدين كان لها موقع متميز في نفسه وهذا ما دفعه للقول الذي وثقه ابن شداد (والله لان افقد اولادي كلهم احب الي من اهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف اصنع)[٤٢] والى هذا فان السلطان صلاح الدين قد اعطى الدليل الاكبر على عظمة السلام والتسامح عند المسلمين وان التعايش السلمي في المدن والقرى يسع الجميع بلا منة لاحد على آخر ولكن ان يكون الاساس في ذلك عدم الغدر واحترام شعائر وطقوس الآخر وحماية معتقده وهذا يتضح عندما طلب الانكتار من صلاح الدين التنازل عن القدس لانها للنصارى اجاب (القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا اعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور ان ننزل عنه ولا تقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين)[٤٣] وعندما اشار اليه الانكتار بالبلاد الاخرى اجاب قائلاً (واما البلاد فهي لنا في الاصل واستيلاءكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين ... ولا يجوز لنا ان نفرط فيها الا

---

[٤٠] ابن شداد ، النوادر ، ٢٤٦-٢٤٧ .

[٤١] ابن شداد ، النوادر ، ٢٥١ .

[٤٢] ابن شداد ، النوادر ، ٢٨٠ .

[٤٣] ابن شداد ، النوادر ، ٢٩٠ ، ينظر كذلك الاصفهاني ، ابي عبدالله محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ) حروب صلاح الدين ، ط١ ، دار المنار ، بيروت ٢٠٠٤ ، ص٢٩٣.

[٤٤] ابن شداد ، النوادر ، ٢٩٠ .

لمصلحة راجعة الى الإسلام هي اوفي منها)[٤٤]وحاول الانكتار وكجزء من سياسته المراوغة ان يقدم اخته هدية للملك العادل فوافق السلطان صلاح الدين من اجل ابراز حقيقة الاسلام ورسالة السلام وتسامحه وان يكون التصاهر عنوان للمحبة والوئام معهم الا ان ما لبث الانكتار الى ان اعلن تخليه عن هذه الرغبة التي كانت في الاساس جس نبض المسلمين والقائد صلاح الدين الا ان الاخير سحب البساط من تحته وبذلك كشفت حقيقة الانكتار وعدم جديته بالتقرب من المسلمين[٤٥] وعندما بدات الزيارات تتواتر بين الانكتار وجماعته والقائد صلاح الدين وجماعته اصبح هناك نوع من التقارب الذي اراده المسلمون من اجل افهام الطرف الآخر بحقيقة انسانيتهم وتعايشهم السلمي لذا فانهم قد اكلوا من طعام هؤلاء وبالمقابل فان الانكتار وجماعته اكلوا من طعام المسلمين [٤٦] ولاية صريحة في ذلك (وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم)[٤٧] ثم جرت مراسلات كثيرة بينهم توجها السلطان بالقول (الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فاذا انتظم امر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون الا لمفاوضة في مهم ...وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة)[٤٨] وفي كل مرة كان السلطان يكرم الرسول ويجله ويحترمه ويقدم له الطعام فياكل معه[٤٩] وقد توج السلطان عمله هذا عندما بدأ ملك الانكتار بالميل الظاهري له فكتب للسلطان رسالة مفادها (اني احب صداقتك ومودتك)[١٢٠] فكان رد السلطان بالايجاب على ذلك من اجل التعايش السلمي بين المسلمين والطرف الآخر فلا يوجد مجال الا سلكه السلطان لاجل تحقيق هذا الهدف النبيل ومن موقع القوة والنصر الذي طالما يؤدي بصاحبه الى التعند

---

[٤٥] ابن شداد ، النوادر ، ٣٠٠ .

[٤٦] ابن شداد ، النوادر ، ٣٠١ .

[٤٧]سورة المائدة من الاية ٥.

[٤٨] ابن شداد ، النوادر ، ٣٠١ .

[٤٩] ابن شداد ، النوادر ، ٣٠٢ .

[٥٠] ابن شداد ، النوادر ، ٣٢٦ .

[٥١] ابن شداد ، النوادر ، ٣٢٧ .

[٥٢] ابن شداد ، النوادر ، ١٩١

وفرض الامر الواقع ولكنه الاسلام وتعاليمه السلمية التي ملأت الصدور محبة وعدل ومساواة الى ذلك ، فعندما طلب الانكتار كنيسة لهم في بلاد المسلمين لممارسة طقوسهم وبكل حرية لم يتردد السلطان بالموافقة على ذلك[٥١]بل انه وافق على دخول الافرنج القدس باعداد دون مقابل كل ذلك كي يفهموا حقيقة الاسلام ورسالته السلمية واهمية التعايش بين الناس على ارض الاسلام بعيداً عن الظلم والقتل والنهب[٥٢]وبذلك يمكن القول ان السلطان كان يعطي كل شيء يطلبونه من اجل الغرض اعلاه فلا شيء اهم من الصلح ولا اعظم ولا شيء يداني السلام والتسامح بالاسلام ولذلك نجحت جحافل الاسلام بنشره في الارض المعمورة فالاسلام دين التسامح والمحبة والسلام والوئام والامان ، هو دين الله الذي ارتضاه للناس كافة ولعل ابدع ما قيل في حق القائد صلاح الدين هو ما قاله اعداءه في حقه وقيل الفضل ما شهدت به الاعداء فهذا كاغيكلو الاخير صاحب قلعة الروم يكتب لصلاح الدين (كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس مما اطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان ورافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ادام الله اقباله وضاعف جلاله وصان منهجيته وكماله وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله ...)[٥٣] كل هذه الشواهد تعطي الدليل الكبير على حسن التعايش السلمي والعفو والتسامح التي اظهرها المسلمون في عصر صلاح الدين والتي كانت في الاساس المبادئ السامية التي جاء بها الاسلام فحق والحال هذا قول الشاعر

ملكنا فكان العفو منا سجية وملكتكم فسال بالدم ابطح

وحسبنا هذا التفاوت بيننا وكل اناء بالذي فيه ينضح

١٣

[٥٣] ابن شداد ، النوادر ، ١٩٥ .

الخاتمة

بعد ان فرغنا بحمد الله ومنه من كتابة البحث توصلنا الى ما يلي

١- ان رسالة الاسلام السمحاء هي السلام مع الامم الاخرى القائم على اصول الدين التي وجهت المسلمين في ذلك .

٢- حقيقة ان السلام ليس شعاراً وكلمات تطلق وانما هو تطبيق عملي في منهج المسلمين .

٣- حقيقة السلام لا يقبل بالتعامل بالمثل في حين رأينا الغدر عند الاقوام الاخرى فاننا نلاحظ العفو والصفح مع الآخرين من قبل المسلمين .

٤- اهمية الجهاد عند القائد صلاح الدين الايوبي الذي ترك من اجله فريضة الحج وهي الركن الخامس في الاسلام .

٥- اماط البحث اللثام عن جوانب كثيرة من المن من موقع القوة عند السلطان وان النصر لا يزيده الا زهداً وصفحا وعفواً وهي ركائز السلام العليا .

٦- اثبت البحث المكانة العظيمة لمؤلف الكتاب فكان بحق من اعظم كتب التراجم للرجال قدم فيه المؤلف صورة ناصعة عن المنهجية التاريخية الصادقة عند العرب المسلمين .

٧- اكد البحث على التعامل السلمي للاسلام مع الاسرى وهي كفيلة بالرد على كل التخرصات التي قيلت بصدده باكرامهم واطعامهم ومراسلة اهليهم

.

المصادر

١- ابن حوقل ، محمد ابو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧م) صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٧ .

٢- الاصفهاني ابي عبدالله محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١١٠٣م) ، حروب صلاح الدين ، ط١ ، دار المنارة ، بيروت ٢٠٠٤ .

٣- ابن شداد ، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت٥٣٩هـ/١١٤٤م)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، سيرة صلاح الدين ، تحقيق: احمد ابيبش ، دار الاوائل ، سوريا ٢٠٠٣ .

٤- ابي بكر المقدسي ، شمس الدين بن عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر المقدسي (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٣ .

٥- ياقوت الحموي ، الامام شهاب الدين بن عبدالله ياقوت عبدالله الحموي الروحي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٠٩م) ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .